# وثائق وأحداث

## العرب في العصور الكلاسيكية القديمة

### تعريف لكتاب فرانتس التهايم وروث شتيل[1]

بقلم الدكتور مارتيانو روكاليا
المعهد الالماني للابحاث الشرقية في بيروت

سئل مرة الأب لاگرانج[2] الدومينيكي : ما هي اللغة الشرقية التي لا غنى عنها لكل مستشرق ؟ فاجاب جواب الواثق بنفسه وهو يبتسم بدهاء : الألمانية . إن اعتماد المذكور على خبرته الشخصية أدت به الى الاجابة على هذا النحو ، فانتاج حركة الاستشراق الألمانية تشمل كافة الحقول وتحلى بدقة التحليل مما يجعلنا نلاحظ أن دور النشر المختصة بالاستشراق تعيد ، حتى في يومنا هذا ، طباعة مؤلفات الكثيرين من المستشرقين الألمان القديمة التي لا تزال تعتبر كلاسيكية وصالحة للاستعمال رغم التقدم البزيع الذي احرزته العلوم الألسنية والفقهية ورغم صدور ابحاث حديثة تتعلق بحركة الاستشراق والشرق . فهذه ، على سبيل المثال : دار فلتر ده گروبتر[3] التي تنوب الآن عن عدد كبير من دور النشر الخاصة بالاستشراق ، تقوم برسالتها وتنشر المؤلف الموسوعي (وهو تاريخه يتألف من ست مجلدات) الذي يعالج موضوع العرب في العصور الكلاسيكية القديمة . إن اسمي المؤلفين فرانتس التهايم وروث شتيل يكفيلان لضمان جدية هذا المشروع العلمي المتعلق بالاستشراق . ولئن تركنا المؤلف بعيداً عن متناول من يجهم الأمر في الأولية اي العلماء العرب لتحسرنا في الواجب ولذا كان علينا ، رغم

(١) *Die Araber in der Alten Welt*, von Franz Altheim und Ruth Stiehl, Berlin, Walter de Gruyter and Co., 1964 *sq.*
(٢) Lagrange
(٣) Walter de Gruyter

صعوبات اللغة الألمانية واللغة التقنية المستعملة في المؤلف. أن نستنير كنوز هذا السفر القيّم المشحون بمسائل فقهية وتاريخية وأثرية الخ ... وإذ زُودت بعطف وتشجيع المؤلفين الأستاذين السيد التهامي والسيدة شتيل نفسيهما أقوم بتحليل هذه المجلدات الستة وتقديمها محتفظاً لنفسي في بعض الأحيان حق ابداء بعض الملاحظات الإضافية التي تمليها عليّ الحقيقة التاريخية كما اني أرى لزاماً عليّ احترام رأي المؤلفين والخضوع لسلطتهما غير المنازعة.

المجلد الأول: يبدي المؤلفان الملاحظة التالية في مقدمة كتابهما: كاد تاريخ العرب في العصور الكلاسيكية القديمة أن يكون وقفاً على اختصاصيي العلوم العربية والاسلامية ولم يولِ المستشرقين والمستعربين جلّ جهودهم للعصور الكلاسيكية القديمة بل عالجوها بشكل عابر. ومما يثلج الصدور الآن هو أننا نلاحظ أن هناك جهوداً تبذل لسد هذا الثلم ومن المعلوم اننا لا نستطيع التعرف على ظاهرة عصر معين دون أن نطلع على سوابقها. ولذا تم درس معطيات التاريخ في هذا الكتاب ليس في علاقاتها البيئية العربية المشتركة فحسب بل ايضاً في إطارها الطبيعي من تاريخ العالم: فالعنصران اللذان يحدان هذه الحقبة هما الاسكندر الكبير ومحمد وقد طبعا بطابعيهما طريق الأحداث التي تلتهما. فينتج ان المكانة الكبرى التي يحتلها في هذا المؤلف تاريخ الجزيرة العربية الجنوبية تجد ما يبررها إذ تفقد الأحداث الاسطورية والتاريخية طابعها الخلي وتسجل في مصير تاريخ العالم. يتقيد المؤرخان بلائحة التواريخ التي وضعها گونزاك ريكمانس وجاكلين پيرين[1] تدفعهما رغبة تقديم عواطف تبجيلها لمدرسة لوفان[2] التي استطاعت أن تدخل شيئاً من النظام في تاريخ هذه المنطقة العام.

لم يكن المؤلفان ممن يستنبط العلم في الكتب بل انهما قاما بعدة جولات في سوريا والاردن ومصر وتونس والحبشة والسودان وقد دفعتهما رحلاتهما العلمية لزيارة كينيا ونجبار وحضرموت وللنزول في مدن القاهرة وأديس أبابا وأسمرة وبغداد ودمشق دون التغاضي عن زيارة الحفريات التي تقوم بها مختلف البعثات الأثرية وقد سعيا دوماً للتحري عن العلاقات القائمة بين الحضارات الكلاسيكية الاوروبية والعربية وعن الروابط القائمة بينها وغالباً ما قاما بهذه الرحلات العلمية على حسابهما الخاص. وهذه أمور جديرة بالتنويه اذ تبين الرصانة التي تتجلى بمشروعهما العلمي الذي نفذ بحذافيره.

(١) Gonzague Ryckmans et Jacqueline Pirenne
(٢) Louvain

فيما يلي محتوى المجلد الذي سوف نلخصه مع كافة تفاصيله :


| | | |
|---|---|---|
| الفصل الأول | : ساراپيس | ١٧ |
| الفصل الثاني | : اخبار تتعلق بأصل الأنباط | ٣١ |
| الفصل الثالث | : الرحلة حول بحر اريتيريا وكورتيوس روفوس[1] | ٤٠ |
| الفصل الرابع | : البطالسة والأنباط | ٦٥ |
| الفصل الخامس | : يمبولوس[2] | ٨٠ |
| الفصل السادس | : اللحيانيون | ٩٣ |
| الفصل السابع | : عمانه وجرّه[3] | ١٠٧ |
| الفصل الثامن | : الهجرة الى افريقيا الشرقية | ١١٤ |
| الفصل التاسع | : أهل الحضر الأوائل في اخلال الخصيب | ١٣٩ |
| الفصل العاشر | : الآرامية : لغة عالمية | ١٨١ |
| ملحق | : الكنعانيون والآراميون | ٢١٣ |
| الفصل الحادي عشر | : اللغة اليونانية في الشرق | ٢٣٧ |
| الفصل الثاني عشر | : تحضير اخلال الخصيب (تابع للفصل التاسع) | ٢٦٨ |
| الفصل الثالث عشر | : ابحاث عرقية على ورق البردي اليوناني — المصري | ٣٧٣ |
| الفصل الرابع عشر | : سكان افريقيا الشمالية الأصليون من الحروب البونيكية لغاية الولاية الرومانية | ٤٢٠ |


ملاحق


| | |
|---|---|
| حراب وحاملات حراب | ٥٥٠ |
| مُشتّى وأصل الفن العربي | ٥٩٢ |
| كلمات يونانية في اللغة السريانية | ٦٠٨ |
| التبادل الثقافي الايراني — السامي | ٦٢٣ |
| موعظتا كيرلس الاسكندري وتيودوتس الانكيراني باللغة الحبشية | ٦٣٩ |
| الدراسات الآرامية في يومنا هذا | ٦٤٨ |
| حاشية تتعلق بفرق الرماة في الامبراطورية العليا | ٦٦١—٦٧٧ |


(١) Curtius Rufus
(٢) Iambulos
(٣) Omana et Gerrha

سارابيس[1] (صفحة ١٧ ـ ٣٠)

كانت الجغرافية الكلاسيكية تعين موقع جزيرة الاله سيرابيس[2] او سارابيس على ساحل عمان بالذات. قبل ان تتجه شواطئه نحو الخليج الفارسي دائرةً حوله من الجهة الشمالية الغربية. ويذكرها بطليموس اكثر من مرة كجزيرة سارابيس[3] ويقول ان فيها معبداً ولربما هو للاله سارابيس كما يذكرها ايضاً استفانوس البيزنطي[4] تحت اسمها المنتصب سارابيس ولكن المصدر الذي يتكلم عنها مفصلاً هو «الرحلة حول بحر اريتيريا». ف ٣٣[5] وهو يجعل الجزيرة، حين يمتد شاطئ عمان، على بعد ٢٠٠٠ غلوة من جزيرة زينوبيوس[6]. وتتألف الجزيرة من ثلاث قرى يسكنها أناس يأكلون الأسماك ويتكلمون جميعهم العربية.

تصادف س ر پ ي و كاسم علم عند الانباط وقد حركه مارك لذزبرسكي[7] على شكل «سرابين» وقد كتب ج. كانتينو[8] الاسم على شكل ش ر پ ي و وربطه باللفظة العربية ش رف وربما اننا نعلم ان اللغة النبطية تستعمل بدون تمييز حرف س وحرف ش نستطيع ان نجزم ان شكلي س ر پ ي و و ش ر پ ي و يبيتان بشكل قاطع صحة قراءة لذزبارسكي هذا العلم.

ولا يعجب ان تصادف اعلام تيمن بالاهة أمثال سارابيس وسيرابيون شائعة عند الأنباط ويعود ذلك الى قرب الانباط من وادي النيل ولكن الصعوبة تنجم عن إقامة العلاقة بين الاسم والمسمى اي جزيرة سارابيس لأن هناك أسباباً موجبة تنفي أن يكون أصل الاسم مصرياً وتفيدنا «الرحلة ...» ان سكان الجزيرة كانوا أناساً مكرسين[9] اي مكرسين لسارابيس ولربما كانت لفظة «هيارس»[10] مرادفة للفظة «هيارودولوس»[11] وهذا مما يحملنا

(١) Sarapis
(٢) Sérapis
(٣) νῆσος Σαραπίδος
(٤) Stephanos de Byzance
(٥) *Periplus maris Erythraei*, 33
(٦) Zenobios
(٧) Lidzbarski
(٨) J. Cantineau
(٩) ἱερόδουλος او Κάτοχος كما ذكرتهم اوراق بردي سرابيون منفيس
(١٠) ἱερεύς كاهن
(١١) ἱερόδουλος خادم المقدس.

على اعتبار التثاقف الحاصل في المفاهيم الدينية قد انتشر في كابادوسيا وبابل وعيلام وجنوب جزيرة العرب كما أنه يجب ألا ننسى أنه كان في خليج جره لاجئون كلدانيين قد ذكرهم سترابون[1]. وقد أخذت الآن فكرة وجود إله بابلي يحمل اسم ساراپيس تلقى بعض القبول وكان ف. ديليتش[2] قد أشار الى وجود إله يحمل اسم شرپّو[3] في مجموعة الآلهة البابلية. وقد سعى ليمن[4] في تحديد هوية ذلك الإله وربطه بـ شَر أپْسي إله الاوقيانوس وقد أيدت هذه الفرضية الأخيرة كلياً الدراسات المقارنة التي قام بها ث. هوپفنر[5].

واذا استثنينا بعض القضايا التي وجدت تلقائياً لنفسها الحلول الملائمة. كقضية جزيرة ساراپيس وكونها مأهولة بالسكان العرب. وقد أقام الدليل على ذلك علماً العاديات والكتابات الحديثة؛ وكقضية أعلام التيجان ومنها ساراپيس التي شاعت في شبه الجزيرة العربية وفي أطرافها؛ والتي أدت الى مجموعة من التأملات تتعلق بمصدر العبادة التي حظي بها الإله ساراپيس في الاسكندرية وفي مَمْفيس؛ وقد بين علماً العاديات والكتابات ان عبادة الإله ساراپيس قد دخلت مصر قبل فتح الاسكندر الكبير وقد تدعم هذه النظرية النصوص التاريخية وقد يؤيدها الشعر اليوناني؛ نقول: اذا استثنينا هذه القضايا، نجد ان مشكلة أصل ساراپيس لم تحل بعد وهي لا تزال مفتوحة؛ فنظريات ا. ڤلكن[6] قد لا تلاقي من يحبذها ولكن التأييد اليوم قد يشفع تارة بالنظرية «البابلية» وطوراً بنظرية «سينوپيس»[7].

اخبار تتعلق بأصل الأنباط

نعثر لأول مرة على اسم الأنباط في سنة ٣١٢ قبل الميلاد وقد ذكره هيرونيموس الكرديانيّ[8] بمناسبة قيام حملة عسكرية ضد هذه القبيلة العربية وقد خطط هذه الحملة انطيگونوس[9]. وكان قد شنّ عدة غارات على

(١) Strabon
(٢) F. Delitzsch
(٣) Šarrapu
(٤) C. F. Lehmann
(٥) Th. Höpfner
(٦) U. Wilken
(٧) سينوپيس هي مدينة Sinope. «النظرية البابلية» تعزو عبادة سراپيس الى اصل بابلي فيما نظرية «سينوپيس» تعزوها الى هذه المدينة.
(٨) Hieronymos de Kardia
(٩) Antigonos

سوريا وفينيقيا وهو يذكر أن « هؤلاء العرب الذين يطلق عليهم اسم الانباط[1] كانوا يناصبونه العداء .

هيرونيموس الكرديافي

يقدم لنا نبذة خاطفة عن ميزات العرب . فهم يعيشون أقواماً ويتعشقون الحرية ويقضون حياتهم تحت قبة السماء وقد انتقوا لهم منطقة خالية من ينابيع المياه وخاوية من الأنهار . اذا تجرأ العدو ودخل المنطقة التي يعيشون فيها لسوف يقع في حيرة إذ لن يجد مكاناً يسكنه . لا يبذر العرب الأرض ولا يزرعون الاشجار وهم لا يشربون الخمر قط ولا يبنون المساكن ومن يخالفهم في الرأي فنصيبه الموت وهم يتصورون ان الابتعاد عن العادات المألوفة قد ينوي ارادتهم في البقاء احراراً فالرغبة في الحرية تلازمهم من مطلع حياتهم لغايتها .

ثم يعالج المؤلف : بعد هذه الاعتبارات العامة . تفاصيل حياة كل من الأقوام العربية ويذكر أن بعضها يربي الجمال ذوات السنام الواحد او السنامين وبعضها الآخر يهتم بتربية العجول . ويحتل الأنباط في مؤلفه مكانة خاصة وهو يقدر عددهم بعشرة آلاف نسمة وينسب اليهم الثراء الطائل . يحمل الأنباط حتى البحر الأبيض المتوسط البخور والمر والأفاوي التي تصلهم من سكان الجزيرة العربية السعيدة[2] . ويتعلق الأنباط بحريتهم تمام التعلق واذا داهمهم العدو فهم يلوذون بالصحاري[3] وهي أرض حرام على العدو لانها خالية من المياه ولكن الانباط بنوا فيها الصهاريج حيث تتجمع مياه الأمطار وهم فقط يعرفون مكان هذه الصهاريج او الخزانات . ولا يستقي الانباط انعامهم إلا مرة واحدة في كل ثلاثة أيام وذلك لكي تتعود : إذا اقتضت الحاجة : اللجوء الى الصحراء الخالية من الماء . ويقتات الأنباط بالتمر والحليب ويشربون ماءهم ممزوجاً بالفلفل[4] ونوع من الصمغ . قد يختلط العرب والأنباط منهم بالمتحضرين وقد يشتركون بزراعة الأرض مع غيرهم ولكنهم يأبون السكن في المنازل . إن الصفات المميزة للعرب ولغيرها من الأقوام العربية هي روحهم التواقة الى الحرية

(١) οἱ Ἄραβες οἱ καλούμενοι Ναβαταῖοι
(٢) Arabia Felix
(٣) παράδεισοι ὀχυρώματα
(٤) πέπερι

واكتفاؤهم بقليل من الماء وتقيدهم بعدم إقامة الأبنية وأما في أمورهم المعاشية الأخرى فهم لا يتميزون عن الأقوام التي تجاورهم او التي تسكن في أطراف الصحاري.

يذكر ايضاً هيرونيموس البانيگوريس[1] وهو نوع من السوق الموسمي الذي يذكرنا بالأسواق السنوية التي سوف تقام في العصور المتأخرة في عكاظ ومكة. يقصد العرب والأنباط منهم السوق الموسمي مع أفاويهم ويقايضونها بحاجياتهم اليومية ويترك الانباط اثناء قيام هذه السوق نساءهم واطفالهم وشيوخهم وأموالهم لحصونها في «الموضع الحجري»[2] وهذا الموضع يقع على بعد مسيرة يومين عن كل مكان مأهول بالسكان.

يأتينا بعض المؤلفين بمعلومات إضافية تثبت ما تركه لنا بهذا الخصوص ديودوروس[3] فيفيدنا اگترخيدس[4] في ما كتبه عن البحر الأحمر بأن الأنباط لم يسكنوا داخل منطقتهم فحسب بل قد استوطنوا ايضاً على شواطئ البحر الأحمر؛ وبأنهم اشتهروا بكثرة قطعانهم؛ كما أننا نعلم من الكتاب نفسه أن الذين كانوا يجلبون اليهم البخور والعطور هم سكان جرّه والميّنيون المتاطنون جنوب الجزيرة العربية. وقد تكون جديرة بكل اهتمامنا الملاحظة التي نعثر عليها عند اگترخيدس ومفادها أنه تقوم في قعر جون شواطئ البحر الاحمر، غابة صغيرة ومقدسة من النخل[5] يجليها سكان المنطقة وفيها هيكل مع نقش لم يتوصل اي شخص يوناني الى حل رموزه. يسهر كاهن وكاهنة على خدمة الهيكل وتقام فيه كل خمس سنوات حفلة «پانيكوريس» يجتمع لمراسمها كافة سكان المنطقة المجاورة وتذبح فيها مئة رأس من النوق. يحمل الحجاج الذين يحضرون المراسم حين عودتهم الى بلدهم مياه المكان المقدس الى الذين لازموا بيوتهم وتنسب لتلك المياه خواصاً تشفي من الامراض والعاهات. ان تيوفراستوس الذي يذكر الموقع عينه والاحتفال نفسه يفيدنا ان ذلك يتم مرتين في السنة، في الربيع وفي أواخر الصيف وان احتفالات الربيع تدوم شهراً واحداً واحتفالات أواخر الصيف شهرين وان أمان الله في هاتين الفترتين يعم الكون ويشمل الناس والحيوانات.

(١) παγήγυρις
(٢) ἐπὶ τινος πέτρας
(٣) Diodore
(٤) Agatharchidès
(٥) φοινικῶν

وقد ترك لنا ديو دوروس ملاحظة قد تجلينا لنا بدوره هيرونيموس الكرداني وكلاهما يتفقان في سرد النادرة التي تتعلق بسوق پانيگوريس وبعادة حجر الأطفال والنساء والشيوخ في مكان محصن . ونستطيع ان نتحقق من صحة هذين الأمرين من المهمة التي كُلف بها القائد الينايوس من قبل انتيگونوس بموجب قهر الأنباط .

انتظر القائد موسم الپانيگوريس واقتحم مقاطعة آدوم[1] بعد مسيرة ثلاث ايام وثلاثة ليال قطع فيها مسافة ٢٢٠٠ غلوة مداهماً في منتصف الليل الصخرة ومستفيداً من غفوة الأنباط فباغت الثائرين وأعمل السيف في رقابهم ونهب كل ما وجده تحت متناول يده واستولى على خمسمائة وزنة من الفضة وعلى كميات كبيرة من البخور والمر ولم يطل المقام به في الصخرة بل انسحب . ولكنه لم يكد يقطع ٢٠٠ غلوة حتى لحق به الانباط وباغتوه مع جيشه المتفرق في النوم وقد نجا منه خمسون جندياً فقط استطاعوا ان يلوذوا بالفرار وعادت الغنيمة الى أيدي مالكيها الشرعيين .

كتب الأنباط إثر هذه الحادثة رسالة بالحرف السرياني[2] إلى انتيگونوس يدفعون فيها التهمة عن انفسهم ويلصقونها فيه مدعين انه دبّر هو نفسه تلك المؤامرة ، وإن دلّت هذه الملاحظة العابرة على شيء فهي تبين لنا أن الأنباط لم يتبنوا الآرامية في القرن الأول قبل الميلاد فقط بل قد تبنوها كلغة رسمية في أواخر العصر الاخيمني . أجاب انتيگونوس على رسالة الأنباط مخادعاً وادعى انه حاول صد الينايوس عن تنفيذ مأربه وأخفى نياته الحقيقية رغبةً منه في طمأنة الأنباط لعلهم يولونه من جديد ثقتهم وقد انخدع الأنباط من رد انتيگونوس ولكنهم لزموا الحذر وعندما حاول المذكور في هذه المرة ايضاً مداهمتهم وأرسل لهذه الغاية ابنه ديمتريوس[3] على رأس ٤٠٠٠ من الجند المشاة مع ١٠٠٠ من الفرسان أخفق في مسعاه اذ اطلقت اشارات نارية الأنباط عن قدوم جيوش العدو فحملوا أمواهم « الى الصخرة »[4] وجعلوا لها حامية وأطلقوا قطعانهم في الصحاري . فشلت هجمات المعتدين وقرر الأنباط ارضاء ديمتريوس بالهدايا في حال موافقته على فك الحصار عن الصخرة وعلى الانسحاب فاكتفى المغيرون بالهدايا وابتعدوا عن المدينة .

---

(١) ἀπὸ τῆς Ἰδουμαίας ἐπαρχίας
(٢) συρίοις γράμμασι
(٣) Demetrios
(٤) εἰς... τὴν πέτραν

نعلم الآن حق العلم ان الصخرة التي نحن بصددها ليست إلا الموقع الذي سيصبح فيما بعد مدينة البتراء وهذا أمر تؤيده كافة النصوص والوثائق وهنا نذكر شاهداً أولا : « وكانوا ينصرفون الى موضع قفر ليحتموا به »[1] ؛ وشاهداً ثانياً : « كان في المكان آبار من حفر يديهم »[2] ؛ وشاهداً ثالثاً ينوه معتزاً بدفاع مجيد وساعدته تضاريس المكان »[3] . وبخصوص الشاهد الثالث لا يسعنا إلا أن نلمح الى ذلك عطوف الذي يرتفع الى علو ١١١٠ م. والذي ينتصب في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة التي ستنشأ فيما بعد .

اتجه جيش ديمتريوس بعد انسحابه نحو البحر الميت لتشهير بأسلحته الذي يقبل عليه إقبالاً شديداً سكان مصر ويختطون به مواقعهم وكان سكان هذه المنطقة يحافظون على سلعتهم النفيسة ويسيرون عليها ورأى انتيكونوس في الأسفلت هذا وسيلة ناجعة كغيرها للاثراء قد تعوض عليه ما فاته بعد حملته الفاشلة ولكن الأحداث جرت مرة ثانية على غير ما كان يتوقع ويذكر هيرونيموس الكرديانى أن انتيكونس لم يوفق في قهر ٦٠٠٠ من العرب تجمعوا هناك وتغلبوا عليه وسفكوا دم معظم رجاله .

٥

ونجد لأول مرة ذكر الأنباط ، قبل الأحداث التي سردناها أعلاه ؛ وكان يطلق عليهم اسم عرب وقد ثبت اسمهم هذا من نص حصار الاسكندر لغزة في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

تذكر نصوص ارّيانوس التاريخية أن الخصي « باتيس » هو الذي تولى أمر الدفاع عن المدينة وعندما اقترب جيش الاسكندر الكبير رفض المذكور ان يسلم المدينة بل قام بتحصينها وامتاز مستعداً للمقاومة وقد قيل عن المقاومين إنهم « عرب ... جاؤوا للمساعدة »[4] وما لبث أن أصبح الدفاع عن المدينة أمراً شاقاً فأصيب ملكها بالجراح مرتين لاقتراب المعارك من مشارف المدينة وقاوم سكانها الغزاويون[5] حتى آخر رجل منهم وبيع اطفالها ونساؤها كعبيد .

---

(١) τὸ δὲ χωρίον ὑπῆρχεν ὀχυρὸν μὲν καθ' ὑπερβολήν, ἄπαχυστον δέ .
(٢) οὔσης μιᾶς ἀναβάσεως χειροποιήτου
(٣) διὰ τὴν ὑπεροχὴν τῶν τόπων
(٤) Ἄραβας... μισθωτοὺς ἐπαγόμενος
(٥) Γαζαῖοι

ونعلق أولاً على اسم البطل الذي ذاد عن المدينة Batis : واسمه هذا من أصل عربي ـ باطش : وقد نقش في الخط النبطي على شكل بطشو وقد ربط ج. كانتينو الذي كان يجهل نص اريانوس الاسم بما قرأه في القاموس اي بطّاش .

وتأييداً لما أبداه الاستاذ التهايم من آراء بخصوص البقاع التي انتشر فيها الأنباط . نرى وجوب إضافة ما يلي : ألقى منذ سنتين الاستاذ لانكستر هاردن[1] المعروف في أوساط العاديات الأردنية . محاضرة في المجلس الثقافي البريطاني في بيروت وعرض أفلاماً تبين أن عدداً ضخماً من الحجارة البازلتية التي تغطي كل منطقة آدوم تحمل نقوشاً نبطية بدائية . يشير ديودوروس أن الأنباط كانوا يحملون الى البحر الابيض المتوسط الأقاوي والعطور التي كانت تصلهم من بلاد العرب السعيدة ولا نستطيع بعد قراءة هذه الاشارة إلا اعتبار غزة كنقطة التقاء إذ كانت في نهاية الطرق التي تتجه اليها من ايلات على البحر الأحمر ومن شبه جزيرة العرب . كما أنها كانت تقع على الطريق الذي يربط بلاد ما بين النهرين بمصر . وقد أبدى الأنباط اهتماماً كبيراً بغزة بسبب نوعية سلعهم ولذلك اظهروا دوماً استعدادهم لمساعدة المدينة ولربما ارسلوا اليها المرتزق Batis لكي يعاون مكانها ضد الاسكندر .

ونستطيع بهذا الصدد الاعتماد ايضاً على ملاحظة صادرة عن كورتيوس روفوس الذي يذكر فيها ان آمر موقع غزة كان يدعى « باتيس »[2] وأن حرساً « قليل العدد »[3] كان يحمي اسوار المدينة الحصينة يساعده في مهمته هذه المواطنون وقد لجأ « عربي من جنود الفرس »[4] بتصويب ضربة كادت تقضي على الاسكندر وكانت مقاومة المدينة عنيفة وقد قرر المحاصرون ايقاع خسائر جسيمة بالمحاصرين وقد أدت الغارة الى مقتل عشرة آلاف من الفرس والعرب . لا يميز كورتيوس روفوس قط بين السكان « الغزاويين » و « المرتزقة العرب »[5] ( كما فعل اريانوس ) وذلك لأنه قد يضفي على غزة الصبغة العربية دون سواها وقد رأى بوليبيوس وفلافيوس جوزف في مؤلفيهما

(١) Lankaster Harding
(٢) باليونانية Βάτις
(٣) modicum praesidium
(٤) Arabs quidam Darei miles
(٥) Ἄραβες μισθοφοροί

التاريخيين الرأي عينه وهما عندما يتكلمان عن هذه المعركة لا يعرفان الا « الغزاويين » .

قد نستطيع القول ان غزة لم تكن عربية قبل الاحتلال الاسلامي ويرى W. W. Tarn عكس ذلك ويؤيد رأيه مستشهداً بـ Hérodote (انظر ٣ و ٥ و ٧ و ٩١) ولكن تعليله للنصوص لا يعتبر كحجة قاطعة ، وعلى كل لا تلمح النصوص المستشهد بها لاحتلال عربي لغزة وهذا ديونيسوس الكرديائي يسمي المنطقة آدوم وهذه المعلومات التي وصلت الينا تبين ان الجزيرة العربية في قديم الزمان كانت تختلف تمام الاختلاف عما هي عليه الآن ، وكل ما نستطيع ان نقوله هو ان غزة لم تكن قط يهودية وكانت لمجتبا دوماً عربية .

٥

ينقل لنا كورتيوش روفوس في تاريخه النادرة التالية : كُلف پوليداماس[1] بعد الحكم على فيلوتاس[2] بالذهاب الى اكباتانا لاغتيال پرمينيون وقد تنكر للخروج من درانگاي[3] عاصمة درانگيانا بزي عربي وصحبه عربيان تركا نساءهما واطفالهما « كرهائن »[4] لدى الاسكندر الكبير ووصل ثلاثتهم عبر صحاري لا ماء فيها وبعد مسيرة تسعة أيام الى المكان المقرر حيث خلع پوليداماس الثياب العربية التي تنكر بها وارتدى لباس أهل مكدونيا . وكان قد آثر لمسيرته من درنگاي الى اكباتانا اتخاذ طريق الصحراء المباشر ليحول دون وصول نبأ رحلته الى پارمينيون قبل أوانها[5] ولربما قد أودى به طريقه الى القريب من بحيرة هامون وحازى حكذا كاباي اي اصفهان الحالية . ويجزم كورتيوس روفوس مؤكداً وجود عرب في منطقة درنگيانا في فارس ولكن رواية اريانوس للحدث نفسه لا تذكر ، حتى ولا تلميحاً ، عرباً قد لقيهم پوليداماس في طريقه . وعلينا أن نتساءل : هل أقام عرب في بلاد فارس ؟ وفي حالة الايجاب ، متى تم ثم المقام فيها ؟ نعثر في « الرحلة حول بحر اريتريا » على خبر يتعلق بهذا الموضوع مفاده ان قمة « اسبخ » كانت النقطة التي تفصل فارس عن الشاطئ الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية

(١) Polydamas
(٢) Philotas
(٣) Drangae
(٤) Vinculum fidei
(٥) Velocitate opus est, qua celeritatem famae antecedas

حيث تقع جزر زينوبيوس التسع والتي عرفت باسمها هذا بفضل اسم رجل عربي لقب بزينب ويبعد موقعها ٢٠٠٠ غلوة عن جزيرة ساراپيس وكان الشاطئ بكامله حتى عمان الحالية تحت السيطرة الفارسية ويروي الطبري نفسه ان شاطئي الخليج الفارسي كليهما كانا تحت سيطرة فارس ولذا مر اردشير الأول بالبحرين عندما أراد فتح حترا .

يحدثنا المسعودي في القرن العاشر عن السيرافيين المقيمين في فارس ونجد ذكرًا لأهل سيراف في المؤلفات المتأخرة وذكر ميكان « محلة من سيراف» . فهل وقعنا عرضاً على سكان جزيرة ساراپيس حسب ما ورد في « الرحلة ... » وفي مصادر تاريخية أخرى ؟

كان في عمان الحديث عرب يخضعون للسيطرة الساسانية ومجرد القاء نظرة على الخارطة الجغرافية يبين لنا ان عمان الساساني هذا وكرمان وكدروسيه[1] تقع جميعاً مقابل بلاد فارس وقد عرف أهل هذا العصر مرفأ مدينة هارموزاي[2] المرافق لهرمز وسوف يطلق على هذا المرفأ في العصور الهيلينستية المتأخرة اسم عمانه وقد ثبت على هذا الشكل في « الرحلة »٣٦ . استوطن عمانيو القسم الجنوبي من الخليج الفارسي العرب في شمال عمان الحديث ويذكر پلينيوس في مؤلفه « التاريخ الطبيعي » عن قربهم من زيتيس[3] الذي قد يكون اسماً مشتقاً من أصل عربي (زيتي من زيت) وكانت سيراف تقع على الشاطئ المقابل في فارس وقد ذكر ذلك ابن خرداذبه وقدامة . وهكذا اننا نجد عرباً يخضعون للسيطرة الفارسية في عمان الحديث كما نجدهم على شواطئ منطقة كرمان المجاورة لبلاد فارس ولربما نجد عرباً في بلاد فارس بالذات .

الرحلة حول بحر اريتيريا وكورتيوس روفوس ( صفحة ٤٠–٦٤ )

لم تجد بعد مشكلة سنة تأليف كورتيوس روفوس لتاريخ الاسكندر حلاً نهائياً . فالأرجح انه كتب بين عصر الامبراطور كلوديوس وعصر الامبراطور ساويروس وما استجد في هذه المشكلة هو ربط الفترات الزمنية التي يحددها كورتيوس روفوس بالفترات الزمنية التي تذكرها « الرحلة حول بحر اريتيريا » وقد ظهر ان كورتيوس روفوس قد استمد تاريخ أزمنته من

(١) Gedrosia
(٢) Harmozei
(٣) Zétis

« الرحلة » واستعان به ولذا كثر التوافق الزمني بين كورتيوس و « الرحلة » وفي حال قبولنا بأن التعامل التجاري الذي قد عرف رواجاً كبيراً بين الهند والغرب قد ذكره للمرة الأولى بطليموس و « الرحلة »، حقّ لنا نسبة كورتيوس و « الرحلة » الى فترة زمنية واحدة. ولم يزل حتى الآن يتأرجح تأريخ وضع « الرحلة » بين عصر نيرون ونهاية القرن الأول الميلادي ولقد لخضعت السيدة جاكلين بيرين في مؤلفها (*Le royaume sud-arabe de Qatabān et sa datation*, 1961, 167-193) كل المعطيات الكلاسيكية التي توافرت لديها بهذا الخصوص الى غربلة محكمة وقد استطاعت بالحجج الدامغة وبالاعتماد على معطيات علوم الكتابات القديمة وقراءتها والتاريخ والنصوص الفارسية : تثبيت السنوات ٢٢٥ و ٢٣٠ كحد أقصى لتأليف « الرحلة ». ووافق مبدئياً النهايم وشتيل على هذا الحد ولكنهما أدخلا على نظرية بيرين بعض التعديلات والتحسينات الطفيفة التي فاتت هذه الأخيرة أو أوقعتها في بعض الشك والحيرة.

فُحصت الآن الأصول الشرقية واليونانية واللاتينية واستفيد منها الى أقصى حد ولذا نستطيع بكل تأكيد نسبة « الرحلة » إلى النصف الأول من القرن الثالث او على الأصح الى عصر الامبراطور سبتيميوس ساويروس. فالنصوص والتحليلات والتعليلات تقنع بصحة هذه النسبة بشكل لا مواربة فيه.

البطالسة والأنباط (صفحة ٦٥ـ٧٩)

ان المرجع الأساسي الذي يسلط الأضواء الكاشفة على نشأة سياسة البطالسة وتجارتهم في البحر الاحمر هو سفر الكندي اگاثرخيدس الضخم وقد عاش هذا في الاسكندرية ولم يطبع مؤلفه الا طبعة واحدة قام بها مولر[1] في سلسلة *Geographi Graeci Minores* I, 1882, p. 111 s. وهي الطبعة المعمول بها الى الآن اذ لم تخل طبعة أخرى محلها وقد فحصته جاكلين بيرين من زاوية علاقته بالجزيرة العربية الجنوبية وكان مؤلفه قد وضع تاريخاً لاوروبا يقع في ٤٩ مجلداً وتاريخاً لآسيا في عشر مجلدات وقد عكف المؤلف في آخر حياته على تاريخ البحر الاحمر ولكن مجموعة من الظروف القاهرة الخارجية حالت دون انجازه العمل. ونعتمد لتحديد تاريخ مؤلفه البحر الاحمر على الحدس والتخمين ولربما قد قام المؤلف بعمله في الفترة الواقعة

(١) C. Müller

بين ١٣٢–١٣١ و ١١٧–١٠٨ قبل الميلاد . ولم نعثر على أصل المؤلف ولم يصل إلينا بكامله ولكن فوتيوس[1] وديودوروس ٣ : ١٢–١٨ احتفظا بمقطوعتين منه قد نشرهما مولر الذي أتاح لنا قراءة وصف « الخليج العربي » ٧٩–١٠٣[2] .

لم يكد البطالسة يجعلون البحر الاحمر صالحاً للملاحة التجارية حتى هرع الأنباط اليه وأخذوا يقومون بأعمال القرصنة ولذا اضطر البطالسة إلى إقامة شرطة بحرية وعندما سقطت مدينة ايلانا[3] في أيدي البطالسة اتخذت لها اسم بيرينيكه[4] وعسكرت فيها شرطة البحر التي كانت تتألف من ٩٨ « حارساً تتلمذ العربية »[5] .

ويمكننا ان نطرح السؤال التالي : من هم بالضبط هؤلاء التجار الذين مهد لهم البطالسة طرق الملاحة في البحر الاحمر ووضعوا تحت تصرفهم مرافئ بيرينيكه وميوس هورموس وفيلوتيرا[6] ومن هم هؤلاء « رجال البحر »[7] الذين كان يداهمهم الأنباط بغية نهبهم ؟ لم يكن بالطبع هؤلاء التجار من الاوساط التي كان ينتمي اليها القرصنة الأنباط . يقول مثل سائر ينسب الى أخيكار الحكيم عثر عليه في بردي قديم في اليفنتينا : « إياك أن تدل عربياً على البحر او صيداوياً على الصحراء » . مما ينوه بأن العرب . اسياد البر . كانوا يتعاطون القرصنة في البحر وان الصيدونيين . اسياد البحر . كانوا لا يخجلون من تعاطي القرصنة في البر . وعلى كل فلنا ملء الحرية بتفسير هذا المثل على الوجه الذي نرتئيه .

اما امر وصول السلع الى مرفأ بيرينيكه على خليج ايلانا وبه الى غزة فكان يتم على الوجه التالي : كان المينيون هم الذين يؤمنون نقل البضائع كلياً أو جزئياً الى غزة بينما كان يتم نقلها في البحر الاحمر إما على يد المينيين التابعين للبطالسة إما على يد اليونان خاصة . وكان الطريق المتبع لنقل سلع الجزيرة العربية الجنوبية هو أن يستلمها الأنباط من المينيين وان ينقلوها من البتراء

(١) Photius . في مؤلفه « بيبليكا » *Bibliothèque*
(٢) Ἀσάβινος κόλπος
(٣) Ailana
(٤) Bérénikè
(٥) φύλακες τοῦ Ἀραβίου μυχοῦ
(٦) Myos Hormos, Philotera
(٧) πλόιμοι

الى غزة وذلك عن طريق الصحراء . وحتى عندما كان السبئيون يتاجرون بالذهب سوريا إبان حكم بطليموس الثاني : كانت هذه السلعة تنقل تقليديا بواسطة طريق البر فقط وما كانت التجارة البحرية البطليموسية تعتمد إلا على المرفأ الوحيد القائم في الجنوب ، « خرموثاس »[1] الذي كان بوسعه أن يستقبل السفن من المراكب تقريباً . ولم يكن يبعد المرفأ المذكور عن بلاد ثمود القريبة من اليمن وكان هناك تيار من المياه يرتطم على جنوب المنطقة البطلية وقد كان هذا التيار يعوق الملاحة ولذا كثرت الحوادث الناجمة عن صعوبة الملاحة ومرارًا ما أصابت بالأضرار الزوارق التي كانت تقصد مرفأ خرموثاس ونعتقد حسب معطيات التاريخ ان قراصنة البحر لم يكونوا عرباً فحسب بل انباطاً ايضاً ولم تقتصر اعمال القرصنة على البحر الاحمر بل تعدتها الى حوادث برية مما ارغم البطالسة على إقامة حصون على شواطئ البحر وعلى طول طريق نقل السلع وقد هدّد سكان جرء والمينيون يساعدهم السبئيون احتكار نقل السلع نحو البحر الابيض المتوسط ، هذا الاحتكار الذي استأثر به الأنباط وقد سعوا للذود عنه بكل ما أوتوا من قوة ولكن بطليموس الثاني الذي حاول انتزاع هذا الاحتكار منهم نجح في مسعاه ووصل الى البحر المتوسط بالدوران حول البحر الاحمر دون عبور أراضيهم .

كانت الخطة التجارية المينية التي توجه السلع نحو الشمال اي نحو الأنباط والبتراء هي مدينة ديدان في شمال الحجاز وكانت فيها جالية من المينيين وكان السبئيون الذين كانوا هم ايضاً يحملون بخورهم وأفاويههم الى الشمال : لا يتوقعون أن يرحب بهم أهل ديدان وقد كانوا يملكون : للوصول الى فينيقيا أو سوريا : طريقاً يفضي بهم الى الشرق . إننا لا نعرف الكثير عن هذا الطريق التجاري ولكننا نفترض أنه كان يمر بالموقعين اللذين أقيمت عليهما اليوم الحائل والجوف وقد أقام اكاترخيدس وفوتيوس علاقة بين سكان جرء والمينيين وحددا الطريق التجارية المؤدية الى سوريا فقد كانت تنطلق من الجوف مخترقة وادي الرمة بحائل فتيماء وأخيرًا وادي سرحان .

تمتع الانباط بامتيازات سياسية لكونهم حلفاء السلوقيين وناهضتهم البطالسة وقد اهتم الانباط خاصة باحتكاراتهم التجارية ويجدر بنا أن نلاحظ ان الأراضي التي استولى عليها البطالسة في سوريا وفي فينيقيا كانت تخص السبئيين واهل جرة ولا تخص الأنباط . ويفهم من هذا أنه ، رغم اختلاف

(١) Kharmuthas

المصالح البيطية والسلوقية . سلك القيمان مسلكاً موحداً في الأمور السياسية والعسكرية . ولما سقط الغور السوري وفلسطين في حوزة السلوقيين . إثر الحرب السورية الخامسة (٢٠٠—١٩٥ قبل الميلاد) التي أدت الى احتلالهم لسوريا : حارب في جيش انطيوخوس الثالث عرب مع جمالهم واصبحت طريق العطور والأفاوي مفتوحة من جديد للانباط حتى غزة اي النقطة النهائية لطريق التجارية المنطلقة من البتراء . أما وجود السبئيين في غزة فهذا شيء غير معقول . انسحب حرقان[1] الموالي للسلوقيين الى الضفة الشرقية من الأردن وأسس طوبياد ونحن نعرف اليوم أطلال قصره باسم عراق الأمير . وحصنه الذي لا يزال باديا للعيان باسم وادي الشير . وقد حارب حرقان العرب ( أعني الأنباط ) وقد قتل عدداً منهم ووقع الآخرون بأسره وقد حكم ما جاوره من البلاد مدة سبعة اعوام ولكن عندما تولى الحكم انطيوخوس الرابع بعد وفاة سلوقوس الرابع . انتحر حرقان . خوفاً من أن ينتقم منه مليكه فتوثقت عرى الصداقة من جديد بين الأنباط والسلوقيين .

( للبحث صلة )

(١) Hyrcan